التوضيح على مختصر البزدوي . اما اذا سألتني عن العلامة الاول في مقابلة العلامة الثاني فاني لا أذكره الآن وان صدق ظني يكون هو عبد القاهر الجرجاني ولكن الافضل لك أن تسأل شخصا آخر من مدرسي حاشية التجريد للبناني فان من يقرأ هذه الحاشية يسهل عليه وزن العلمين، وتحديد الفرق بين العلامتين . — وربما قال لك ان الاول هو القطب الشيرازي لان سهولة كلام الامام عبد القاهر وسلاسته تمنعهم من جعله العلامة الاول — وان شئت ان لا تشتغل بهذه المسألة فهو أفضل من ذلك الافضل ويكون أفضل التفضيل الاول على غير بابه والسلام . وانما المهم فيما نحن بصدده ان الارادة السليمة ، والطبيعة المستقيمة، يمكنها أن تميز الملح النظيف من الوسخ وتمشي بتقديم النظيف الى الضيف من أول الامر، بدون احتياج الى اصدار أمر، وقس على على ملح الطعام بقية الاملاح كالنحو وملح اللغة والعلما ملح العالم وهكذا كل ما يحتاج اليه في اصلاح الاغذية بدنية كانت أو روحية دنيوية كانت أو دينية . اما اذا كنت لا تميز ولا تفهم الا بأمر فتربص حتى يأتي الله بأمره والله شديد العقاب

الباب الحادي والعشرون

﴿ الاحتفال لتذكار تأسيس الدولة العلية ﴾

نرى الاوربيين في مصر يحتفلون في كل عام احتفالات عمومية لدولهم أهمها الاحتفال للجمهورية الفرنسية والاحتفال لاستقلال ايطاليا وان لهم في بلادهم من العناية بذلك اضعاف ما نرى منهم في بلادنا حتى انهم ليحتفلون للرجال العظماء الذين خدموا الامة خدمة جليلة . وبلاد مصر عثمانية ولكنها مستقلة عن الدولة في ادارتها وعامة شئونها وقد زال على عهد الاحتلال أكثر ما يذكر المصريين بها حتى انها قد كانت التركية الزامية في مدارس الحكومة المصرية ثم صارت اختيارية ثم اضمحلت وتلاشت . وقد استحسن نفر من نجباء الترك المقيمين في القاهرة ان يحتفلوا في كل سنة بتذكار تأسيس الدولة العثمانية وتكونها في مثل الوقت الذي نودي فيه بعثمان الاول سلطانا وكان ذلك في ٤ جمادي الاولى سنة ٦٩٩ للهجرة الشريفة الموافق ١٧ يناير سنة ١٣٠٠ ميلادية وقد جعلوا هذا الاحتفال الاول على الحساب الميلادي ولا أدري أكان ذلك عن اختيار للحساب الميلادي لانه بالاشهر الشمسية أم السبب فيه ان الفكر

أو العزم على الاحتفال كان متأخراً؟ والرأي الذي لا ينبغي التردد فيه ان يكون الاحتفال بعد هذا العام على الحساب الهجري

تألفت لجنة في ادارة جريدة (ترك) لاجل هذا الاحتفال فوضعت اللجنة قانوناً لتأسيس جمعية خيرية للعثمانيين الذين ليس لهم جمعيات خيرية في مصر وهم المسلمون على اختلاف شعوبهم ولغاتهم فان للنصارى العثمانيين جمعيات كثيرة منها عدة جمعيات للسوريين خاصة واحدة للموارنة وواحدة للروم الارثوذكس وواحدة للروم الكاثوليك . والسبب في ذلك ان المسلمين متأخرون عن جميع أبناء الملل في الاعمال الاجتماعية حتى ان مسلمي مصر لم توجد لهم جمعية خيرية الا من عهد قريب وكان سبب ايجادها مشهوداً فرنجي ولكن قيض الله تعالى لها أفضل رجال مصر في هذا العصر خلقاً وهمة فثبتت بثباتهم على شدة سعي المسلمين أنفسهم في اسقاطها ولو لم يكن لها مورد الا من اشتراك المشتركين فيها لسقطت من زمن طويل فان الرجل الغني يشترك فيها وتمر عليه السنين الطوال ولا يدفع المبلغ الذي تبرع به وفرضه على نفسه . هذا وهم يرون كثرة الجمعيات المسيحية ويساعدونها . وقد قضت الصعوبات التي مارسها الذين نهضوا بهذه الجمعية والوشايات التي وجهت اليهم من المسلمين — ومنها اتهامهم بأنهم يساعدون مهدي السودان في وقته — ان يجعلوها خاصة بمسلمي مصر فأصبح سائر المسلمين العثمانيين لا ملجأ لمن يصاب منهم أو ينكب في هذه البلاد التي لا تزال أوربا تعترف بانها عثمانية . لهذا كان تأسيس جمعية خيرية لمسلمي العثمانيين من أفضل الاعمال الدالة على ان روح الحياة الاجتماعية دبت في المسلمين أي في بعضهم ، ولكن أعداء أنفسهم من المسلمين سيسعون في ابطال هذه الجمعية ويتهمونها بمثل ما اتهموا به أختها المصرية من قبلها ونسأل الله ان يقيض لها من أهل الجد والثبات ما قيض للتي قبلها وان يهيئ لها أسباب النجاح والفلاح

دعت اللجنة نحو ثمانين رجلا من العثمانيين من جميع الاجناس الى فندق الكونتينتال ، وأعدت لهم هناك مأدبة كأحسن ما يؤدب للامراء والأقيال . وبعد الفراغ من الطعام ، افتتح رئيس الحفلة الكلام ، (هو لطيف باشا سليم) فذكر ان الغرض من الدعوة قد عرف من الرقاع التي أرسلت الى المدعوين وقال انه دعي الى رياسة الاحتفال الحاضر ولا يدري السبب في ذلك ثم تكلم كلاما وجيزاً في سبب ترك مثل هذا الاحتفال في الاحقاب الماضية : والسنين الخالية . أيام عز الدولة ومجدها ، وبزوغ شمس سعدها ، والقيام به في مثل هذه الايام ، وقد انحطت الدولة في نظر الأنام ، فقال

ما خلاصته: ان الذي يسبق الى الأفهام ان الاحتفال باستقلال الدولة العلية الآن ينطبق على المثل « بعد خراب البصرة » فان هذه الدولة التي أسسها قوم ساقهم حب المعالي الى إذلال الامم ودوس هام الدول بسنابك خيولهم فأقاموها بالقوة القاهرة والسيوف البارقة قد وصلت الى درجة من المجد والفخر لا تعلوها درجة ولم يحتفل في أيام عزها أحد بتذكار استقلالها . ثم طرأ عليها الترف والفساد فضعفت وانحطت وقامت دول الغرب تهددها بالمحو والانقراض — وذكر من مجد دول الغرب وتقدمها — وفي هذه الحالة التي نرى فيها الدولة في النزع نحتفل بتذكار استقلالها. ألا يصح أن يقال ان هذا « بعد خراب البصرة » (قال) ماذا نريد بهذا الاحتفال الآن هل نريد أن نفتخر بمجد مضى وانقضى ونفش أنفسنا ونخدعها بما لا يغني عن ضعفنا شيئا؟ أم نريد ان نرثي الدولة ونؤبنها ونبكي على عزها ومجدها ؟ ثم قال انه لا يريد ان يمحي الحاضرين ويوقعهم في اليأس فانه يوجد في العثمانيين الآن من الفصحاء وأصحاب الاقلام من يرجى فيهم الخير للدولة . وختم كلامه بقوله انه قد أسست في القاهرة جمعية خيرية وأشار الى قانونها بين يديه وان جمعية الاحتفال عهدت اليه بأن يكلف جلال الدين بك عارف بالقاء خطبة تركية وصاحب المنار بخطبة عربية . فقام جلال الدين بك فتلا خطابا مسهبا مكتوبا في ورقات صفق له القوم في أثنائه مرارا . ثم قام هذا العاجز منشئ المنار وخطب خطبة عربية ارتجالية سر العثمانيين عامة والمصريين منهم خاصة اعتدالها واختتامها بالدعاء للسلطان عبد الحميد أيد الله دولته ولم يذكر اسم الرئيس والخطيب التركي.

وقد لخصت بعض الجرائد الخطبة فرأينا ان ننقل تلخيص جريدة الراوي لأنه لم يكد يغادر من الافكار الاساسية التي قلناها شيئا مهما الا قولنا ان العثمانيين أنشأوا يشتغلون بتحصيل العلم لما علموا انه في هذا العصر قوام الدول وأساس القوة لذلك تتقح كلتين مما جاء في تلك الجريدة ولنا الحق في ذلك لانه كلامنا وهو :

نحتفل اليوم بتذكار استقلال دولتنا العلية العثمانية وقد دعيت الى الخطابة فرأيت ان أبني على ما قاله سعادة رئيس الاحتفال في فاتحة المقال وهو كلمتان — كلمة في معنى الاحتفال وكلمة في الدولة التي نحتفل لذكرى استقلالها وتكوّنها

انما يراد بالاحتفال احياء الشعور بمجد من يحتفل لاجله والتذكير بتاريخه المجيد، وهل نحن اليوم في حاجة الى احياء هذا الشعور وتجديد هذه الذكرى ؟ وهل لدولتنا العلية تاريخ مجيد تستحق به أن يحتفل لتذكار تاريخها وتمثيل ماضيها ؟ ولماذا لم يسبق للعثمانيين مثل هذا الاحتفال في الزمن الماضي

لاشك أننا اليوم أحوج الى مثل هذا الاحتفال منا في الزمن الماضي أيام مجد الدولة الأكبر فان احياء الشعور بمجد الدولة وتذكر تاريخها يبعث فينا روح النهوض لتأييد استقلالها ، وتدارك مافرط من خطأ بعض رجالها . وأما سبب تأخيره الى اليوم فهو ان مثل هذا العمل لم يكن يعهد في بلادنا وانما هو شيء استفدناه في هذا العصر من الاوروبيين فانا نرى القوم يحتفلون للتذكير بقيام دولهم وباعمالها العظيمة ويحتفلون مثل ذلك لرجالها العظام من الفاتحين وغيرهم

وللدولة العلية العثمانية اسم عظيم في الدول ولها تاريخ مجيد يحق للعثماني ان يفتخر به ، يعلم ذلك من النظر في كيفية تكوينها ومن سيرتها الحميدة في نشأتها

يذهب الذين لا يعرفون من التاريخ الا ظواهره الى ان هذه الدولة قامت بالقوة والقهر والصواب انها قامت بالفضيلة فان تلك الفئة التي جاءت مع أسرة السلطان عثمان الاول من بلاد ارمينيا الى بلاد الاناطول ونصرت السلطان علاء الدين السلجوقي وايدته ثم بنت دولة عظيمة على اطلال دولته بعد سقوطها لم تكن من القوة والكثرة بحيث تملك بلاد الفرس وبلاد الروم وجزءاً عظيما من بلاد أوربا . واننا نعلم ان السلطان محمد الفاتح قد حاصر القسطنطينية العظمى بثلاثمائة رجل ونيف على عدد اهل بدر (رض) تقريبا ثم فتحها وهي أمنع مدينة في الارض وأهلها كانوا اكثر من الترك عدداً وأحسن عدداً وأكثر اطلاعا وعلما . ولكن العثمانيين كانوا متصفين بالفضائل التي أهمها الاتحاد الذي كان الروم محرومين منه يومئذ . فقد نقل انهم كانوا يتنازعون في المسائل الدينية والفاتح على اسوار المدينة حتى ان بعض رجال الدين قال : لأن أرى تاج السلطان محمد في مذبح كنيسة أياصوفيا أحب اليّ من ان أرى فيه كمة (طاقية) على رأس كردينال من كرادلة الكنيسة الغربية

لا تعجبوا من القول بان الدولة قامت بالفضيلة لا بمجرد القوة والقسوة فان القوم كانوا في حال بداوة فجاءهم الاسلام فجمع كلمتهم وهذب نفوسهم حتى كان ملوكهم الاولون على مقربة من سيرة الخلفاء الراشدين فقد نقل المؤرخون ان المؤسس لهذه الدولة السلطان عثمان الذي ترون صورته امامكم الآن لم يترك لورثته الا لحية وعمامة مضرجة بالدم والمعهود في الفاتحين المؤسسين للممالك بالقهر والقسوة ان يتركوا القناطير المقنطرة من الذهب والجواهر والاثاث والماعون

اما سيرة هذه الدولة الحميدة فانها تعلم من النظر في وجه حاجة الانسانية اليها عند تكوينها ومن سيرتها في بلادها . اما وجه الحاجة الى دولة مثلها في زمنها فانا

أيها السادة تعرفونه من الوقوف على تاريخ الامم التي تأسست الدولة في بلادها

هذه الدولة مؤلفة من أمم وشعوب وقبائل لها لغات مختلفة واديان مختلفة ولكن الدولة مسلمة واكثر شعوبها اسلامية وأهم عناصرها الاولى المسلمون والروم. فاما المسلمون فقد كان ملكهم تمزق كل ممزق فاما الدولة العباسية فقد كان التتار قوضوا صرحها ثم زحف الصليبيون على بلادها من كل جانب وأما الدولة الفاطمية فكانت أيضا قد زلزلت زلزالها . وهددت من الصليبيين بزوالها . ولا أعد ملوك الطوائف والمماليك في عداد الدول فانهم كانوا أشبه بالبيوت (العائلات) منهم بالدول — يقوم في البيت رجل عظيم فيجعل له ذكراً ومجداً ثم يسقط فيسقط البيت بسقوطه ولا يبقى فيه الا أثره . فدول الاسلام قبل العثمانيين ثلاث الاموية والعباسية والفاطمية وقد كانت هذه الدول اضمحلت وذهب الرجاء منها وبذلك كان المسلمون في حاجة الى دولة جديدة تجمع كلمتهم وتحمي حوزتهم

وأما الروم فقد كانوا في ذلك الوقت أسوأ حالا من المسلمين ولولا ذلك ماتيسر للترك تفريق شملهم والاستيلاء على بلادهم وفتح عاصمتهم بعدد قليل . ذلك انهم لم يكونوا أقل من العثمانيين عدداً ولا علماً بالحروب وانما كان ينقصهم ما كان عند العثمانيين من الفضيلة والوحدة فان فساد الاخلاق والتنازع في الدين لا يبقى للامم بقية

سار العثمانيون في تأسيس دولتهم بما تقتضيه الفضيلة الاسلامية من العدل بالنسبة الى غيرهم من الدول الفاتحة فقد اقروا أهل الملل المخالفة لملتهم على اديانهم ولغاتهم وعاداتهم بل جعلت لهم امتيازات يتمتعون به الى الآن حتى انهم يفضلون المسلمين في ذلك ببعض الامور . وكان يسهل على هؤلاء الممتازين ان يرتقوا في ظل عدل هذه الدولة وفضلها وتحت حمايتها الى أقصى ما في استعدادهم

فدولة لها مثل هذا التاريخ المجيد يصح لابنائها ان يفتخروا بها على اختلاف مللهم ونحلهم وان يحتفلوا لتذكار تأسيسها واستقلالها . ونعود الى ذكر فائدة الاحتفال

قلنا ان الفائدة في هذا الاحتفال هو احياء الشعور بمجد الدولة والتذكير بتاريخها لاجل السعي في استحياء ما كان نافعاً واجتناب ما كان ضاراً . وقد تكلم رئيس الاحتفال عن ضعف الدولة واحاطة الاخطار بها تنبيهاً وتذكيراً ولكنه لم يوقعنا في اليأس بالمرة فقد أعرب عن رجائه ببعض فضلاء الامة . ونزيد على ذلك فنقول إنه لا يأس من الدولة

فانها بفضل الله لاتزال ذات قوة عسكرية يشهد لها بها الاعداء وهي قادرة على حماية الامة وانما ينقصها قوة هي أم القوى في هذا العصر وهي قوة العلم والصناعة

قلنا ان هذه الدولة قامت بقوة الفضيلة الفطرية والدينية وقد كانت هذه القوة كافية لسيادة صاحبها على جميع الامم اذ كانت متساوية في الجهل . ولكن الزمان قد تغير وصار كل شيء فيه مبنياً على العلم والصناعة ولذلك تأخرت الدولة عن غيرها فانها لم تكن في يوم من الايام دولة علم وكيف تكون دولة علم وهي لم تكن لها لغة الا اللغة البدوية التي لا قواعد لها ولا تتسع للعلوم والفنون . ان اللغة العثمانية العذبة التي نتعلم الآن قد وضعت قواعدها النحوية والصرفية اثناء القرن الماضي فأين العلم من أمة واقاها القرن الماضي وليس لها لغة تعلم بالقلم والكتاب؟

فأساس الاصلاح الذي نطلبه لحفظ استقلال الدولة هو العلم . فالعلم هو الذي يقوي شوكتها والعلم هو الذي ينمي ثروتها والعلم هو الذي يجمع كلمتها . ارأيتم هذه الشعوب المتفرقة والملل المختلفة لا يمكن ان تكون أمة واحدة الا بالعلم . العلم هو الذي يقرب بين البعداء ويصل الافكار بالافكار . وهو الذي يمتاز به الانسان فكل من كان اقرب مني فكرا كان أقرب مني وداً وانني لأفضل معاملة من لا تجمعني به غير صلة الانسانية على معاملة من تجمعني به كل صلة حتى صلة الدين والنسب القريب اذا كان الاول قريبا مني بفكره وقلبه والآخر بعيداً عني بعقله وقلبه لكن العلم الناقص ربما كان شراً من الجهل البسيط فان الجاهل البسيط يكون على شيء من سنة الفطرة يستقيم به عمله بعض الاستقامة ولكن ناقص العلم لا يستقيم على الفطرة ولا يحسن الصناعة العلمية

أقول هذا لاني أرى كثيراً من الناس يحصرون السعي في اصلاح الدولة بالانحاء على القابضين على زمام الاحكام فيها وما هؤلاء الحكام الا طائفة من الامة فاذا صلحت الامة بالعلم والتهذيب فانها تصلحهم لا محالة . تشكو الامة من الحكومة وانا لنا أمة في الحقيقة ولا يمكن ان تكون أمة الا بالعلم والتهذيب العام والدولة غير قادرة على تعميم التعليم فعلى العقلاء منا ان يسعوا في ذلك لاجل تكوين الامة . ان لنا صورة الامة وهي الافراد المجتمعة ولكن ليس لنا معناها وهو الافراد المتحدة . فاذ كانت هذه الصورة التي أمامكم هي السلطان عثمان مؤسس الدولة فهؤلاء الافراد الذين تروننهم في البلاد العثمانية هم أمة فلا ان تطالب بحقوق الامم هذا ما قوله واختصر القول خوف الملل واختم قولي بالدعاء الى الله تعالى بان يؤيد الدولة العلية ويوفق سلطاننا الاعظم عبد الحميد خان ورجال دولته الى ما فيه خيرها وحفظ مجدها آمين .